الإمام مالك بن أنس الأصبحي (حياته ودوره العلمي)

د / عبد الرحمن أحمد حفظ الدين
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية التربية
جامعة صنعاء

ملخص البحث

4

الإمام مالك بن أنس الاصبحي المتوفى سنة ١٧٩هجرية. مدني المولد والنشأة والحياة والممات. يمني الأصل والنسب ،أمام المذهب المالكي . وفي هذا البحث سنتحدث عن هذا الفقيه العالم والمحدث عن جوانب من حياته وسيرته العطرة ، سنتحدث عن مولده واسمه ونسبه وقبيلته، ثم نشأته في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يتحدث البحث عن جوانب من حياته الاجتماعية مما لا يعرفه الكثير من طلبة العلم والباحثين مثل الحديث عن طعامه وشرابه وملبسه، ومسكنه، وهل كان يمتلك منزلاً؟ أم كان يسكن بيتاً بالإيجار؟ ، وكذلك الأثاث هل كان جيداً أم عادياً؟ ، ثم ماهي مصادر دخل الإمام؟ ومن أين كان ينفق على نفسه؟. هذا عن حياته الاجتماعية أما حياته العلمية فسيتحدث البحث عن مراحل تعليمه في المدينة المنورة ، وأثر مدينة النبي صلى الله عليه وسلم على تعليمه ، تم رحلاته العلمية وشيوخه الذين اخذ عنهم ، ثم أدواره العلمية والمتمثلة في تدريسه لطلابه ، ومؤلفاته العلمية المختلفة، وتأثيره العلمي على مختلف الأمصار الإسلامية ومنها – خصوصاً- بلده اليمن. وفي الأخير سيتحدث البحث عن علاقة الإمام مالك بالخلفاء والأمراء .

مقدمة:

من المعلوم أنه حينما يبرز اسم لعلم من الأعلام أمام القارئ، فإنه يتبادر إلى ذهنه وبصورة تلقائية،ضرورة الإلمام بكل ما يتعلق بجوانب المعرفة عنه، بدءاً باسمه ونسبه وبلده، والظروف التي أحاطت بنشأته، والتأثير المباشر لكل ما سبق ذكره على حياته العلمية والاجتماعية، فضلاً عن العوامل التي ساعدته للوصول إلى المكانة التي أصبح فيها علماً من أعلام بلده وعصره، لاسيّما إذا كانت تلك المكانة الرفيعة في المجال العلمي، لأن الفائدة لن تكون مقصورة على أهل بلده وأمته في عصره فقط،بل إنها تمتد عبر الأجيال المتلاحقة والأزمنة المختلفة، خصوصاً على المهتمين بهذا الجانب الحضاري ، وهذا ما نلحظه من خلال الاستفادة التي حصلنا عليها وحصل عليها غيرنا ممن له إسهام في الجانب المعرفي.

إن المتأمل في حياة الصحابة الكرام،وكذا جيل التابعين وتابعيهم خصوصاً ممن ذاع صيتهم، وملأت شهرتهم الآفاق في المجال العلمي،سيلحظ الأفضلية لهم في كل ما أسهموا به وقدموه في خدمة العلم ومنتسبيه.

إن هذه الأفضلية التي حازوها على من خلفهم وحتى يومنا هذا ، إنما هي تأكيد لحديث الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى،"خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم [1].

ومما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الأفضلية لم تقتصر على جانب معين من جوانب الحياة المختلفة لدى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، إنما تشمل حياتهم كلها،لاسيما الجانب الديني والعلمي، والذي ضرب المسلمون فيهما بسهم وافر، قلّما نجد في تاريخ أمة من الأمم هذه الثروة الكبيرة التي تركها المسلمون والتي كان لها أكبر الأثر في تغيير حياة البشرية جمعاء ، وإخراجها من الظلمات إلى النور، عن طريق كل ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والذي استطاع علماء المسلمين توصيله وتوضيحه للناس كافة في مختلف الأمصار التي تم فتحها ، بدءاً من العهد النبوي ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، ومروراً بالعهد الراشدي ، ثم الأموي والعباسي على وجه الخصوص ، الأمر الذي جعل أبناء تلك البلدان المفتوحة يعتنقون الدين الإسلامي بكل حب ورغبة ، والذي تكلل بشغفهم الواضح في تعلمهم مختلف علوم الدين الإسلامي.

إن ديننا الإسلامي الحنيف حثنا على تعلم العلم لما لذلك من فوائد جمة في حياة الإنسان الدينية والدنيوية ، فكانت أول سورة في القرآن نزلت على معلم هذه الأمة محمد ﷺ تدعو إلى العلم ، قال تعالى:"اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم،الذي علم بالقلم[2].

فنبغ الكثير من أبناء المسلمين في مختلف فنون العلوم الشرعية ، واللغوية ، والاجتماعية ، والتطبيقية ، وغيرها ، وأصبحوا أعلاماً يُقتدى بهم في بلدانهم التي ينتمون إليها ، فضلاً عن سائر أمصار الدولة الإسلامية

---

[1] أخرجه البخاري،أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م) : صحيح البخاري في باب كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم (٣٦٥٠)،ص٦١٢، الطبعة الثانية،١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، مكتبة دار السلام، الرياض .

[2] سورة: العلق ، الآية: (١ ٤) .

والذين لا يزالون حتى عصرنا الراهن كالنجوم يُهتدى بهم ، وما هذه الثروة الطائلة في التراث الفقهي،التي بين أيدينا إلاّ نتاج لاجتهاداتهم العلمية التي أسهموا بها .

و في هذا المقام،سنتحدث بشكل موجز عن عالم كبير،ملأت شهرته الآفاق، وذاع صيته في الأمصار، منذ عُرِف بفقهه وعلمه في القرن الثاني الهجري، وحتى يومنا هذا،والذي اتضح لنا من خلال ما تسنّى لنا الاطلاع عليه في بعض المصادر التي بين أيدينا،أن معلم هذه الأمة ﷺ قد بشر به وبعلمه الذي ستحتاج إليه الأمة الإسلامية في عصره،وسيأتي إليه المهتمون بتعلم العلوم الشرعية،من أمصار العالم الإسلامي ، للتزود من علمه والنهل مما لديه من علوم،إذ قال ﷺ عنه:"يوشك أن يضرب الرجل أكباد الإبل في طلب العلم ،فلا يجد عالماً أعلم من عالم المدينة"[1].

ولعله هو الإمام مالك بن أنس الأصبحي[2](ت ١٧٩هـ/٧٩٥م)المدني المولد والنشأة ، اليمني الأصل والنسب.

سنتناول في بحثنا المتواضع عن هذا الفقيه العالم، جوانب من حياته العملية والعلمية وذلك على النحو التالي:١ مولده واسمه ونسبه وقبيلته.٢ نشأته.٣ حياته الاجتماعية.

٤ مراحل تعليمه بالمدينة المنورة ، وأثر مدينة الرسول ﷺ على ذلك.

٥ رحلاته العلمية وشيوخه الذين أخذ عنهم.

٦ أدواره العلمية وتشمل الآتي:أ تدريسه. ب ج .مؤلفاته.

د تأثيره العلمي على الأمصار الإسلامية ومنها بلده اليمن.٧ علاقته بالخلفاء والأمراء.

ومع ذلك كله ، لا ندعي أننا قد أعطينا هذه الشخصية حقها من الدراسة ، فما هي إلاّ إشارات بسيطة نستطيع من خلالها القول للباحثين والمهتمين إنه وبحسب معرفتي المتواضعة عما ما كتب عن هذا العالم الكبير ، فإنّها لا تزال الكتابة عنه قاصرة ، فنحن في حاجة إلى كتابة متكاملة تشمل جميع جوانب شخصيته.

١ مولده واسمه ونسبه وقبيلته الأصابح:

مما لا شك فيه أن مولد الإمام مالك بن أنس الأصبحي ، لم يكن –كما يعتقد البعض في اليمن بل كان في المدينة المنورة ، لأن جده مالك بن أبي عامر ، قدم من بلده اليمن إلى بلاد الحجاز ، متظلماً من بعض ولاة اليمن آنذاك ، فمال إلى بعض بني تيم بن مرة ، فعاقده[3] وصار معهم ، بل صار منهم ، نتيجة هذا التحالف .

---

[1] أخرجه الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) : جامع الترمذي ، في باب العلم ، حديث رقم (٢٦٨٢) ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، دار السلام للنشر والتوزيع ، القاهرة.

[2] ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٢٠هـ) : مقدمات ابن رشد لبيان ما اقتضته المدونة الكبرى من الأحكام ، ج١ ص٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، دار الفكر ، بيروت.

[3] يذكر أن ابن أبي أويس قال: نحن أصبحيون حلفاء بني تيم ، فننتمي إلى قريش أحب إلينا من اليمن ، ولعل هذا الالتفاف بتيم ، وكما يتضح لنا أنه كان إمَّا بالحلف على الأشهر ، وإما بالصهر (النسب) ، للمزيد من الاطلاع. انظر: القاضي عيّاض ، أبو الفضل عيّاض بن موسى بن

ويذكر أن أبا عامر تحالف مع عثمان بن عبيد الله في الجاهلية ، وقدما معاً المدينة[١] ، وهذا يؤكد على أن أسرة مالك ومنذ ذلك الوقت سكنوا المدينة ، وتأهلوا بها إلى أن جاء مولد الإمام مالك ، بذي المروة[٢] في سنة ٩٣هـ ، بعد أن حملت به أمه ثلاث سنين، كما أشارت إلى ذلك معظم المصادر[٣].

أما اسمه ونسبه فهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح بن حمير[٤].

أما قبيلته فهي الأصابح ، والتي ذكرتها بعض المصادر[٥] ، والمعاجم[٦] المتخصصة في تاريخ اليمن ، بأنّها بطن من حمير من ولد أصبح بن عمرو بن حارث ذي أصبح بن مالك بن زيد بن الغوث ابن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعه حمير الأصغر ، وإلى عزلة الأصابح[٧] بالحجرية[١] ، ينتسب العالم الفقيه مالك بن أنس الأصبحي.

عياض اليحصبي السبتي (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، ج١ص١٠٦ ، ١٠٧ ، تحقيق: د/ أحمد بكير محمود ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار مكتبة الفكر ، طرابلس ، لبنان.

[١] الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، حوادث ووفيات سنة ١٨١-١٧١هـ ، ص٣١٨ ، تحقيق: د/ عمر عبد السلام تدمري ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

[٢] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١١٥ .

[٣] ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٢م) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج٩ص٤٢ ، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د ت ط) ؛ ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) : الطبقات الكبرى ، ج٥ص٢٨٧ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ؛ الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) : سير أعلام النبلاء ، ج٧ص٣٨٧ ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، دار الفكر ، بيروت ؛ ابن النديم ، محمد بن اسحاق (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م): الفهرست ، ص٢٤٧ ، اعتنى بها وعلق عليها: الشيخ إبراهيم رمضان ، ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، دار المعرفة ، بيروت . وتعد هذه الظاهرة غريبة وغير مألوفة بين الناس في جميع المجتمعات ، وفي كل الأزمان ، وقد يعتبر البعض ذلك مخالفاً لما ورد في كتابه الكريم في قوله تعالى: "ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ، ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً" سورة الأحقاف. الآية: ١٥ ، ومع ذلك ، ونظراً لذكر هذه الظاهرة النادرة في معظم المصادر ، ودون العثور على أي تعليق في أي منها ، فإننا نرجح حدوثها لاسيما ونحن نسمع عن حالات حصلت شبيهة بهذه الظاهرة النادرة في مجتمعنا اليمني ، ومن المرجح أن لها تفسيراً طبياً لكننا لم نبحث عنه لدى المتخصصين في ذلك ، والله أعلم .

[٤] ابن سعد: الطبقات ، ج٥ص٢٨٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١٠٢ ، ١٠٣ ؛ ابن رشد : مقدمة ابن رشد لبيان ما اقتضته المدونة من الأحكام ، ج١ص٣ ؛ البستي ، أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م) : مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار ، ص٢٢٣ ، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت .

[٥] الهمداني ، أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٦٠هـ/٩٧١م) : كتاب الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير ، ج٢ص٢٠٥ ، تحقيق : محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي ، طبعة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، الناشر : وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ؛ الزبيدي ، أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت٨٩٣هـ) : طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص ، ص١٠ ، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، الدار اليمنية للنشر والتوزيع صنعاء .

[٦] المقحفي ، إبراهيم أحمد : معجم المدن والقبائل اليمنية ، ص٢٥ ، ٢٦ ، طبعة ١٩٨٥م ، دار الكلمة ، صنعاء.

[٧] الأصابح اليوم قبيل كبير وحي عظيم تتفرع إلى أربع قبائل في مجال مختلفة وأشهرها الأصابح التي يقال لها الصبيحة ومنازلها من باب المندب غرباً إلى قريب يافع شرقاً ومن مخلاف أبين جنوباً إلى الحواشب شمالاً ، وهي قبيلة صلبة العود ، والأصابح أيضاً قبيل صغير مساكنها

٢ نشأته:

يبدو أن لظروف النشأة لأي إنسان أبلغ الأثر في تكوين شخصيته سواءً أكان ذلك سلباً أم إيجاباً، فالأسرة التي تهتم بالعلم يتضح دورها من خلال توفير الجو المناسب والإمكانات الضرورية لأبنائها، وكذا الحث والتشجيع بضرورة العلم ، والذي يتضح لنا أن نشأة الإمام مالك بن أنس الأصبحي، قد أحيطت بجو من الرعاية الكريمة من قبل والديه على وجه الخصوص ، فكان لتشجيعهما الدائم له ولإخوانه ، ومتابعتهما المستمرة لهم في تعليمهم ، والتأنيب للمقصر منهم أبلغ الأثر في بلوغ مالك بن أنس المكانة الرفيعة في العلم،لاسيّما وأن الجو الأسري الذي عاشه مالك مع أفراد أسرته كان شبيهاً بمن يتعلم في مدرسة ، والذي اتضح لنا من خلال تتبع ظروف نشأة مالك مع إخوانه، والتي اتسمت بالمنافسة الشريفة بينه وبين إخوانه في طلب العلم ، فيذكر أن مالك بن أنس كان لا يُعرف إلاّ بمالك أخو النضر ، إلى أن ظهر اهتمامه الشديد وحرصه على طلب العلم حتى صار إخوته يعرفون بأخوة مالك[٢].

يروى عن مالك بن أنس أنه قال: "كان لي أخ في سن ابن شهاب فألقى أبي يوماً علينا مسألة فأصاب أخي وأخطأت ، فقال لي أبي ألهتك الحمام عن طلب العلم فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين"[٣].

من خلال ما سبق ذكره، يتضح أن الدافع الرئيسي الذي دفع مالك إلى الانقطاع لطلب العلم والمثابرة التي ظهرت من قبله في تتبعه لمختلف المشايخ والفقهاء في المدينة لتلقيه العلم على أيديهم ، راجع إلى تأنيب والده له حينما أخطأ في الجواب كأخيه ، كما يدل ذلك أيضاً على أن والده كان له باع ومعرفة وإتقان في فنون العلوم الشرعية ، وإلاّ لما كان سيستطيع اكتشاف الخطأ من الصواب ، فضلاً عن أن اهتمامه بتعليم أولاده لم يقتصر على الذكور فقط ، بل إنه شمل الإناث[٤] من أبنائه ، وذلك لإلمامه الكبير بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التي تحث دائماً على طلب العلم.

في المعافر وفيهم فقه ومعرفة ، والأصابح في الكلاع من ملحقات مدينة جبلة ، والأصابح أيضاً من وصاب العالي ومن الأصابح إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي ، صاحب المذهب المشهور بالمذهب المالكي ، والمنتشر في القارة الأفريقية كتونس والجزائر ومراكش وغيرها . (الهمداني : الأكليل ، ج٢ص١٢٦ ، هامش المحقق ، الأكوع الحوالي) .

[١] الحجرية اليوم كانت تعرف قديماً بالمعافر.(المقحفي:معجم المدن والقبائل اليمنية، ص٢٦)

[٢] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١١٩ .

[٣] المصدر نفسه ، ج١ص١١٩ ، ١٢٠ .

[٤] يذكر أن الزهري روى عن والده أنس ، حيث كان من كبار العلماء في عصره . (الذهبي ، السير ، ج٧ص٣٨٣ ، تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٨٠-١٧١هـ ، ص٣٢٢ .

إن مما يؤكد على أن أسرة الإمام مالك كانت متعلمة تعرف العلم وفوائده ، وآداب طلبه ما يُذكر عن أن والدته كانت تحرص دائماً على توجيه النصائح له أثناء طلبه للعلم من بعض علماء المدينة ممن تتلمذ عليهم بأن يتعلم من آدابهم قبل علمهم[١] .

٣ حياته الاجتماعية:

لقد أشرنا سلفاً في بداية هذا البحث أنه عند الحديث عن أي علم من الأعلام ، فإنه أصبح ضرورياً التطرق إلى حياته الإجتماعية، لتأثيرها المباشر على الجوانب الأخرى ، وقد لمسنا نحن ذلك التأثير في حياتنا العلمية ، فضلاً عن ما قرأناه في أمهات الكتب التي تسنّى لنا الاطلاع عليها ، والتي تؤكد على ذلك.

إن الحديث عن حياة الإمام مالك بن أنس الاجتماعية ، تحتاج إلى بحث كامل ، لكننا سنحاول في بحثنا هذا الاكتفاء بذكر أبرز معالم حياته الاجتماعية ، كالحديث عن مسكنه وملبسه وطيبه ومطعمه ومشربه.

أما الحديث عن مسكنه فيبدو أن الإمام مالك كان لا يملك منزلاً وإنما بيتاً بالإيجار ، ويتضح ذلك من خلال ما ورد عن سؤال المأمون –قبل توليه الخلافة للإمام مالك بقوله: "هل لك دار ، فقال لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وقال: اشتر لك بها داراً"[٢]، ومع ذلك لم نحصل على أي معلومة تفيد أنه اشترى بذلك المال أو غيره منزلاً ، فالثابت لدينا أنه كان يسكن بكراء إلى أن مات[٣] رحمه الله.

وحالة بيوت الكراء لم تقتصر على الإمام مالك فقط ، بل على الكثيرين من العلماء في ذلك الوقت ، وقد يرجع السبب في ذلك إلى زهدهم في الدنيا والرغبة في الدار الآخرة ، متمثلين في ذلك قوله تعالى: "وللآخرة خير لك من الأولى"[٤] وقوله تعالى: "بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خيرٌ وأبقى"[٥] وقوله ﷺ : "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[٦] ، متأسين في ذلك بحياة الرسول ﷺ ، والكثير من الصحابة الكرام الذين لم تكن لهم قصورٌ[٧] فارهة أو أملاك واسعة.

---

[١] القاضي عياض:ترتيب المدارك ، ج١ص١١٩،لقد اتضح ذلك في سلوكه وتعامله مع طلابه حتى ذكر أحدهم أنه استفاد من أدب الإمام مالك أكثر من علمه.(الذهبي: تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٨٠-١٧١هـ ، ص٣٢٣) .

[٢] الأصفهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج٦ص٣٣١، طبعة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت.

[٣] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١١٤ .

[٤] سورة: الضحى ، الآية: (٤) .

[٥] سورة: الأعلى ، الآية: (١٦ ، ١٧) .

[٦] أخرجه الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) : جامع الترمذي ، في باب ما جاء في قصر الأمل ، حديث رقم (٢٣٣٣) ، ص٥٣٤ ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض .

[٧] يذكر أن الحسن البصري كان يحث ويقول: "كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ ، فأتناول سقف البيت بيدي" (ابن سعد : الطبقات ، ج٧ص١٦١) .

لقد اتضح أن الإمام مالك بن أنس كان يسكن بدار عبد الله بن مسعود في المدينة المنورة[١] –ولعله بالإيجار وكان على باب مالك مكتوب ما شاء الله ، فقيل له في ذلك فقال: قال الله تعالى: "ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله"[٢] ، والجنة الدار[٣] ، ومع ما ذكر عن عدم امتلاكه الدار إلاّ أنه كان يهتم بأثاث منزله ، وذلك كون منزله يرتاده وجوه الناس من قريش والأنصار[٤] وغيرهم فكان يحب أن يظهر بالمظهر اللّائق الجميل- ليس تفاخراً كعصرنا المعاش الذي يحب أن يراه عليه ضيوفه وزائريه وتلاميذه ، حاله في ذلك كحال كثيرين من إخوانه العلماء[٥] ممن كانوا يهتمون بأثاث منازلهم على وجه الخصوص.

يروى أن مالك بن أنس كان يجلس في منزله على ضجاع [٦] ونمارق[٧] مطروحة يمنة ويسرة وكان ذلك في سائر منزله لمن يأتيه من قريش والأنصار والناس[٨].

وإذا ما انتقلنا في الحديث عن ملبسه وطيبه ، فسنجد أن اهتمامه بملبسه كان لا يقل عن اهتمامه بأثاث منزله،إن لم يفقه، متعللاً في ذلك بقوله: "ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلاّ ويرى أثر نعمته عليه وخاصة أهل العلم"[٩] مستنداً بقوله ﷺ:"إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"[١٠] وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً عن الاهتمام الشديد لدى العلماء بالمظهر اللائق الجميل كونهم قدوة لتلاميذهم وغيرهم ، فقد يكون ذلك أحد الأسباب المهمة في جذب ترغيب الناس إلى حضور دروسهم وحلقاتهم العلمية ، فضلاً عن إشعار الحاضرين في مجالسهم بأهمية العلم وضرورة إجلالهم له[١١].

---

[١] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١١٥ .

[٢] سورة: الكهف ، الآية: (٣٩) .

[٣] ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ص٤٣ ؛ الذهبي : السير ، ج٨ص١٣٣ ؛ ابن فرحون ، إبراهيم بن علي بن محمد المالكي (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٧م) : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، ص١٩ ، تحقيق : د/محمد الأحمدي أبو النور ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، (ب.ط.ث) .

[٤] ابن سعد : الطبقات ، ج٥ص٢٨٩ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ص٤٥ .

[٥] المختار ، عبد الرحمن أحمد : الحياة الاجتماعية للعلماء من (١٥٠٥٠هـ) ، ص١٧٤-١٧١ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ١٩٩٩م .

[٦] الضجاع : مفردها مضجع ، يقول الله تعالى: "تتجافى جنوبهم عن المضاجع" سورة : السجدة ، الآية : ١٦ . انظر: ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) : لسان العرب المحيط ، ج٢ص٥١٢ ، قدم له الشيخ عبد الله العلايلي ، بيروت ، (د.ط.ث) .

[٧] النمارق : هي الوسائد . (ابن سيدة ، علي بن إسماعيل النحوي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م) : المخصص ، ج١ سفر٤ ص٧٤ ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت . (د.ط.ث) .

[٨] ابن سعد : الطبقات ، ج٥ص٢٨٩ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ص٤٥ .

[٩] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١١٤ .

[١٠] أخرجه الترمذي ، جامع الترمذي في باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، حديث رقم (٢٨١٩) ، ص٦٣٥ .

[١١] الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣١٨ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ص٤٥ .

يروى عن بشر بن الحارث أنه قال: "دخلت على مالك فرأيت عليه طيلسان[١] يساوي خمسمائة ، قد وقع جناحاه على عينيه أشبه شيء بالملوك"[٢] ، وقال غيره: "كان مالك يلبس الثياب العدنية الجياد والخراسانية والمصرية المرتفعة البيض ، ويتطيب بطيب جيد"[٣] .

وكان الإمام مالك يتختم في يده اليمنى بخاتم فصه حجر أسود مكتوب فيه "حسبنا الله ونعم الوكيل"،وكان يكتحل[٤].

أما مطعمه ومشربه فكانا لا يقلا أهمية عما ذكر سابقاً من حيث الاهتمام بهما ، ويتضح أنه لم يكن ممن يبخلون على أنفسهم وأهليهم في مأكلهم ومشربهم ، من أجود الطعام والشراب في ذلك الوقت ، فيذكر أنه كان يأمر خبازه في كل يوم جمعة طعاماً كثيراً[٥].

ويتضح من خلال ذلك ، أن ليوم الجمعة مكانة خاصة لدى العلماء على وجه الخصوص ، كونه أفضل أيام الأسبوع فضلاً عن أنه عيد المسلمين الأسبوعي ، يلتقون فيه ويتزاورون فيما بينهم ، الأمر الذي يؤكد على أن منزله كان يرتاده الكثيرون من وجوه الناس وعامتهم ، ناهيك عن تلاميذه ، وهذا يتطلب إعداد الطعام الكثير لهم ، ابتغاءً بذلك وجه الله تعالى في إكرام الضيف ، وكذا تقديم يد العون لطلبة العلم ، مستشعراً في ذلك أحاديث الرسول ﷺ التي تحث على ما سبق ذكره .

لقد بلغ باهتمام الإمام مالك بنفسه وأهله ومن يألفون ذاك ، إلى أن يخصص مبالغ مالية يومية لشراء لحم حتى لو كلفه ذلك أن يبيع بعضاً من متاعه المنزلي ، ويؤكد ذلك ما قاله أحد أصدقائه "لو لم يجد مالك كل يوم درهمين يبتاع بهما لحماً إلّا أن يبيع في ذلك متاعه لفعل"[٦].

كما أنه كان يحب فاكهة الموز، ويشبهها بثمر الجنة التي لا تنقطع في أي وقت على مدار العام حيث لا يطلبها الإنسان في الصيف أو الشتاء إلا وجدها[٧] .

أما شرابه فكان يفضل إلى جانب الماء شرب العسل في فصل الشتاء ، وشراب السكر في فصل الصيف[٨]، وقد يكون ذلك راجعاً إلى معرفته أن المواد السكرية تزيد من توليد الطاقة لدى الإنسان يستطيع من خلال

---

[١] الطيلسان:كلمة فارسية جمعها طيالس وهو نوع من الأكسية أو الثياب.(ابن منظور: لسان العرب المحيط، ج٢ص٦٠٤).

[٢] القاضي عياض: ترتيب المدارك،ج١ص١١٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام،حوادث ووفيات سنة١٧١-١٨٠هـ، ص٣٢٠.

[٣] ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ص٤٢ ، ٤٣ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١١٤ .

[٤] الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٧١-١٨٠هـ ، ص٣٢٣٣٢٠ .

[٥] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١١٥ .

[٦] المصدر نفسه ، ج١ص١١٥ .

[٧] المصدر نفسه ، ج١ص١١٥ .

[٨] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١١٥ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٧١-١٨٠هـ ، ص٣٢٤ .

تناوله لها القيام بالأعمال المراد إنجازها ، وكذا لمقاومة الجسم لما يتعرض له من أمراض في أيام البرد ، وكذا في أيام اشتداد الحرارة ، بسبب تغير المناخ .

يتضح مما سبق أن الإمام مالكاً كان ميسور الحال ، وقد يتساءل القارئ ما مصادر دخله بالرغم من كونه متفرغاً للعلم وأهله، لا يستطيع القيام بأعمال أخرى تدر عليه الأموال التي تكفي لمواجهة كل التزاماته الأسرية المذكورة ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن مما عثرنا عليه من معلومات حول مصادر دخله تؤكد في مجملها أنه كان قبل طلبه للعلم وتفرغه التام له يمتهن مهنة بيع البز وشراؤه مع أخيه النضر[١]، مما يؤكد على أن له أموالاً كان يتاجر بها قبل طلبه للعلم وأثناء تفرغه له ، قد تكون هذه الأموال لدى إخوانه وأصحابه ممن كان لهم معرفة بالتجارة آنذاك، الأمر الذي يجعلنا أكثر تيقناً وتثبتاً من أن الإمام مالك بن أنس الأصبحي ، كان له مصادر دخل تقيه من احتياجه للخاصة والعامة آنذاك .

- **مراحل تعليمه بالمدينة المنورة وأثر مدينة الرسول ﷺ على ذلك :**

لقد ثبت سلفاً من خلال الحديث عن نشأة الإمام مالك أن لأسرته دوراً كبيراً في تشجيعه على طلب العلم منذُ الصغر ، لما اتضح عنهم من معرفة بفنون العلم المختلفة ، فضلاً عن تأثرهم بالحراك العلمي الموجود في المدينة المنورة في تلك المدة وما سبقها ، حيث كانت المدينة المنورة مركز إشعاع علمي على وجه الخصوص في القرنين الأول والثاني الهجريين[٢].

الجدير بالذكر أن العلماء من مختلف أمصار الدولة الإسلامية آنذاك ، كانوا يرجحون علم أهل المدينة ، بل جاء عن السلف والعلماء وجوب الرجوع إلى عمل أهل المدينة كونه حجة عندهم وإن خالف الأكثر[٣] ، فهذا الإمام الشافعي يقول: "إجماع أهل المدينة أحبُّ إليَّ من القياس"[٤].

إن ما ذكر ليس من أجل المدينة نفسها ، وإنما يرجع لمن سكنها وعاش فيها وتوفى بها وهو معلم هذه الأمة محمد ﷺ، وكذلك أصحابه الذين تربوا وتعلموا على يديه وفي مدرسته التي انطلق منها العلم والنور إلى العالم كافة، وعن ذلك يقول الإمام مالك: "مات بالمدينة من الصحابة نحو عشرة آلاف، وباقيهم تفرق في

---

[١] المصدر نفسه ، ج١ص١١٥ .

[٢] السخاوي،شمس الدين محمد عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص٢٩١ ، ٢٩٢،تحقيق:فراتز روزنثال،ترجم التعليقات والمقدمة/د.صالح أحمد العلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.(د.ط.ث).

[٣] بل لقد بلغ الأمر ببعضهم مثل ابن مهدي إلى القول : السنة المتقدمة من سنة أهل المدينة خير من الحديث . (القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٦٦) .

[٤] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٧٥ .

البلدان ، فأيهما أحرى أن يُتبع ويؤخذ بقولهم؟ من مات عندهم الرسول ﷺ وأصحابه الذين تم ذكرهم؟ أم من مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب الرسول ﷺ"[١].

يتضح مما ورد آنفا الاهتمام الكبير لدى أسرة الإمام مالك وعلى وجه الخصوص والديه بضرورة تعليمه ، فهذه أم الإمام مالك تعلمه آداب طلب العلم ، قال مالك: "قلت لأمي أذهب فأكتب العلم ، فقالت: تعال فالبس ثياب العلم ، فألبستني ثياباً مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها ، ثم قالت: اذهب فاكتب الآن"[٢].

بل لقد وصل بها الأمر إلى أن تأمر ابنها وتعلمه كيف يتعلم ، الآداب من معلميه،إذ قال الإمام مالك: "كانت أمي تعممني وتقول لي اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه"[٣].

إن المكانة العالية التي بلغها الإمام مالك بن أنس الأصبحي في العلم، أتت من خلال مثابرته واجتهاده وملازمته لمختلف شيوخ المدينة المنورة سواءٍ في حلقاتهم العلمية في المساجد، أو في منازلهم ، فهذا ابن هرمز انقطع إليه مالك ما يقرب من ثمان سنوات يأخذ عنه العلم[٤]، بل وصل به الأمر إلى أن يجعل في كفه تمراً ليعطيها لصبيان ابن هرمز لكي يقولوا لمن يأتي يسأل عن الشيخ ابن هرمز أنه مشغول[٥] وهذا ما يؤكد حرص مالك الشديد على تعلم كل ما لدى ابن هرمز من علوم، حتى إنه ذُكر أن مالك بن أنس كان يأتي ابن هرمز أول النهار فما يخرج من لديه إلاّ في الليل[٦] .

ولم يكن الأمر مقصوراً لدى مالك على ابن هرمز فقط ، بل ظهرت رغبته الشديدة لتلقي العلوم الشرعية على أيدي علماء المدينة المنورة الآخرين، مهما بلغ به من صعوبات ومشاق، فهذا ابن شهاب الزهري كان منزله في بني الريل[٧]،يأتي إليه مالك مع زملائه يتدافعون أثناء الدخول عليه في منزله[٨].

ومن شيوخ مالك في المدينة، نافع مولى ابن عمر والذي كان يسكن في ناحية البقيع ، وكان قد كف بصره ، فكان يأتيه مالك يقوده من منزله إلى المسجد ، وكان من شدة حرص مالك على الاستفادة منه ، أنه كان يستغل تلك الفرصة أثناء مرافقته وقيادته له إلى المسجد يسأله فكان نافع يحدثه[٩].

---

[١] المصدر نفسه ، ج١ص٦٧ .

[٢] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١١٩ .

[٣] المصدر نفسه ، ج١ص١١٩ .

[٤] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١٢٠ .

[٥] المصدر نفسه ، ج١ص١٢٠ .

[٦] ابن سعد : الطبقات ، ج٥ص٢٨٨ .

[٧] حي من أحياء المدينة المنورة .

[٨] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١٢٠ .

[٩] المصدر نفسه ، ج١ص١٢٠ .

ويروى عن مالك أنه كان يأتي نافعا في نصف النهار ما يظله شيء من الشمس وهو ينتظره إلى أن يخرج من منزله ، حتى يسأله عن مسائل في العلم[١] .

وهذا يدل علي أن مالكا كان لديه دافع قوي جعله يتحمل كل أنواع الصعاب ، وألوان الفقر في سبيل تعلمه حتى بلغ به الأمر إلى أن يبيع أخشاب سقف منزله[٢] –الذي ورثه عن أبيه لذلك يروى عنه أنه قال: "لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل حاجة"[٣] .

- رحلاته العلمية وشيوخه:

فضل الكثير من علماء الإسلام الأخذ عن العلماء الذين رحلوا من بلدانهم إلى غيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى للأخذ عن علمائها المشهورين ، والذين عُرف عنهم بأنهم أكثر اتقاناً وإلماماً للعديد من العلوم أكثر من غيرهم ممن لم يرحلوا في سبيل ذلك.

وبالرغم من أن الرحلة في ذلك الوقت كانت تُعدُّ من أهم مقومات العالم خصوصاً للمحدث[٤] ، إلاّ أن الإمام مالك بن أنس الأصبحي ، لم يرحل من المدينة إلى أي مصر آخر من أمصار الدولة الإسلامية آنذاك ، وقد يرجع ذلك للأسباب الآتية:

أولاً: لكون المدينة المنورة كانت مقراً وسكناً للرسول ﷺ ، ومعظم الصحابة الكرام ففيها نزل القرآن على رسوله ﷺ ، بين أصحابه وما علمهم الله منه.

ثانياً: وفيها نشأ هذا الدين وترعرع ، وانتشر منها إلى مختلف الأمصار.

ثالثاً: وفيها تلقى الصحابة الكرام ، كل تعاليم السنة النبوية وعملوا بها ، ومن بعدهم التابعين الذين أخذوا عن الصحابة الموجودين فيها.

رابعاً: وجود بعض الأماكن المقدسة بها مثل مسجد الرسول ﷺ وقبره الشريف، مما جعلها على الدوام مهوى ومزاراً، لكل أبناء دار الإسلام، ناهيك عن علمائهم الذين كانوا يأتون أثناء الحج والعمرة ، ومن ثم يزورون

---

[١] ابن سعد : الطبقات ، ج٥، ص٢٨٧ .

[٢] الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣٣١ .

[٣] ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص١٢ ؛ الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣٣١ . لقد بلغ باهتمام الإمام مالك بطلب العلم ، إلى أن يترك يوم فرحه وعيده ليذهب إلى شيخه يطلب منه العلم ، حيث قال : شهدت العيد فقلت هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه فسمعته يقول لجاريته ، أنظري من على الباب ، فنظرت فسمعتها تقول : مولاك الأشقر مالك قال: أدخليه . فدخلت ، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟ قلت: لا . قال هل أكلت شيئاً؟ قلت: لا . قال : فاطعم ، قلت: لا حاجة لي فيه ، قال : فما تريد ، قلت: تحدثني ، فحدثني سبعة عشر حديثاً ، ثم قال وما ينفعك أن حدثتك ولا تحفظها ، قلت : إن شئت ، رددتها عليك ، فرددتها عليه ، فقال : قم فأنت من أوعية العلم . (القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١٢١-١٢٢) .

[٤] الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩هـ) : الموطأ لإمام الأئمة وعالم المدينة مالك بن أنس ج١ص٢٦ ، نقلاً عن المقدمة للمحقق / محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م) دار التراث ، القاهرة .

المسجد النبوي وقبر الرسول ﷺ، فكانوا يقيمون حلقاتهم العلمية في مختلف العلوم الشرعية ، فكان يستفيد منها الإمام مالك وغيره من علماء المدينة [١].

خامساً: تفضيل العلماء وكذا الخاصة والعامة لعلم أهل المدينة على غيرهم من العلماء كون المدينة هي أصل العلم ومنبعه[٢].

ونحن هنا لا نجافي الحقيقة إن قلنا إن علماء المدينة يتميزون عن غيرهم : بالدقة وحسن الجواب مع صحة مروياتهم ، لذلك ظل الكثيرون من العلماء ، ومنذ القرن الأول للهجرة ، يفضلون علم أهل المدينة ، فكانوا يرحلون إليهم من أمصار الإسلام الأخرى للأخذ عنهم ، فيروى عن زيد بن ثابت (ت ٤٥هـ/٦٦٥م) أنه قال: "إذا رأيت أهل المدينة على شيء فأعلم أنه السنة"[٣] وقال الإمام الشافعي: "أمّا أصول أهل المدينة فليس فيها حيلة من صحتها"[٤].

ولم يقتصر هذا الترجيح والتفضيل لعلماء المدينة لدى علماء دار الإسلام والعامة ، بل وجد لدى الخاصة من خلفاء الدولة الإسلامية آنذاك ، فيذكر أن أبا جعفر المنصور(ت ١٥٨هـ/٧٧٥م) قال لمالك: "اجعل هذا العلم علماً واحداً ، فقال له مالك: إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد ، فأفتى كل في مصره بما رأى ، فلأهل المدينة قول ، ولأهل العراق قول ، فقال المنصور: أمّا أهل العراق فلستُ أقبل منهم صرفاً ولا عدلاً ، وإنما العلم علم أهل المدينة ، فضع للناس العلم"[٥].

وقد فضل الإمام مالك بن أنس الأصبحي ، البقاء في المدينة المنورة ، والنهل عن علمائها وعن غيرهم من علماء أمصار الدولة الإسلامية ، ممن كانوا يقيمون حلقاتهم ومجالسهم العلمية فيها دون أن يرحل إلى أي مصر آخر ، بل كان العلماء يرحلون إليه، وإلى المدينة .

- شيوخه:

تعلم الإمام مالك على أيدي الكثيرين من شيوخه ، سواءً أولئك الذين تعلم منهم في حلقاتهم العلمية في المساجد ، أو أولئك الذين لازمهم في منازلهم أعواماً عديدة يأخذ عنهم، وسنكتفي بذكر البعض منهم ممن كان لهم أثر كبير في تكوين شخصية الإمام مالك العلمية، ومن هؤلاء: أبو بكر عبد الله بن يزيد المعروف بابن هرمز (ت ١٤٨هـ) ، ومحمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) ، وربيعة بن أبي

---

[١] المصنف ، عبد الرحمن أحمد حفظ الدين : الحياة العلمية في الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ص١٣٩-١٤٦ ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٣م .

[٢] الخليلي،الخليل بن عبد الله القزويني(ت٤٤٦هـ/١٠٥٤م):الإرشاد في معرفة علماء الحديث ج٢ص٨٠٢ ، تحقيق: محمد سعيد إدريس: ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، مكتبة الرشد ، الرياض ؛ الذهبي : معرفة القرّاء الكبار،ج١ص٩٠.

[٣] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٦١ .

[٤] المصدر نفسه ، ج١ص٦٢ .

[٥] ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص١٩ .

عبد الرحمن(ت١٣٦هـ) ، وكذلك نافع مولى ابن عمر (ت ١٢٠هـ) ، وجعفر الصادق(ت ١٤٨هـ/٧٦٥م) ، وأبو الأسود يتيم عروة ، وأيوب بن أبي تميم السختياني[١] (ت ١٣١هـ) ، ويحيى بن سعيد الأنصاري (ت ١٤٣هـ) ، وهشام بن عروة (ت ١٤٦هـ) ، وزيد بن أسلم (ت ١٣٦هـ)، وعمر ابن الحارث المصري (ت ١٣٩هـ)، وزيد بن أنيسة الجريزي (ت ١٢٤هـ)، ونافع بن أبي نعيم (ت ١٦٩هـ)،الذي قرأ عليه مالك القرآن، وغيرهم ، ممن تتلمذ عليهم مالك وروى عنهم.

الجدير بالذكر أن الكثير من شيوخه وأقرانه ، ممن تم ذكرهم[٢] ، ومن غيرهم[٣] رووا عنه.

- أدواره العلمية وتشمل الآتي:

❖ تدريسه:

عُرف مالك بن أنس الأصبحي بمثابرته واجتهاده في طلب العلم منذُ الطفولة، وكان لاهتمامه وحرصه الدائم على عدم تفويت أي فرصة في الأخذ عن أشهر علماء المدينة أو غيرهم ، ممن وفدوا على الحجاز أثناء الحج أو غيره،أثرٌ إيجابيٌ بالغٌ في تكوين شخصيته العلمية التي وصفها كل شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم، بل وكل أقرانه الذين طلبوا العلم مع الإمام مالك ، فضلاً عن كل من أخذ العلم عنه من أبناء الحجاز، أو ممن رحلوا من أمصار دار الإسلام الأخرى إليه للأخذ عنه ، وصفوه بالإمامة والصدق والإتقان والحفظ، والثبات في الأثر، والتقدم على غيره[٤]، مما أهله للتدريس والفتوى واحتياج الناس إلى علمه قبل أن يبلغ العقدين[٥] من الزمن من عمره.

ونتيجةً لما تميز به عن غيره فقد تصدر للتدريس والفتوى ، وإقامة المجالس والحلقات العلمية في حياة معلميه وشيوخه الذين تتلمذ عليهم ، بل سمحوا له بذلك وأجازوه ، فيروى عنه أنه قال: ما أجبت في الفتيا حتى سألت من هو أعلم مني ، هل يراني موضعاً لذلك؟ سألت ربيعة ، وسألت يحيى بن سعيد ، فأمراني بذلك ، فقال له أحد تلاميذه: يا أبا عبد الله فلو نهوك؟ قال: كنت أنتهي ، لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلاً

---

[١] الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٨١-١٧١هـ ، ص٣١٨ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٣١٨ ؛ الذهبي : السير ، ج٧ص٣٨٣-٣٨٥ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٥٥ .

[٣] مثل: محمد بن عجلان ، وزياد بن سعد ، وسالم بن أمية ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، والثوري ، وابن المنكدر ، وأبو النصر مولى عمر بن عبيد الله بن أسامة بن الهادي (ت ١٣٩هـ) ، وعمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وآخرون . للمزيد من الاطلاع . أنظر: (القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٥٦-٢٧٩ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٨١-١٧١هـ ، ص٣١٨ ؛ السير ، ج٧ص٣٨٥-٣٨٧) .

[٤] الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣١٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١٤٤-٢٩ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٨١-١٧١هـ ، ص٣٢١-٣٢٠ .

[٥] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١٢٥ ؛ أما الذهبي فقد تفرد بذلك وقال أن مالك بن أنس الأصبحي جلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة . (سير أعلام النبلاء ، ج٧ص٣٨٧) .

لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه[١] ، لذلك لم يجرؤ على الفتيا إلاّ بعد أن شهد له سبعون من أهل العلم أنه أهلٌ لذلك[٢].

وهذا أحد شيوخه يقول: "قدمت المدينة في حياة نافع ولمالك حلقة"[٣] ، ويقول آخر: "كان لمالك حلقة في حياة نافع أكبر من حلقة نافع"[٤] ، وهذا يدل على أن حلقته العلمية قد أصبحت أكبر من حلقات شيوخه في حياتهم مما يؤكد على شهرته العلمية ، وتفضيل طلبة العلم لمجالسه وحلقاته العلمية،على مجالس شيوخه الذين تتلمذ عليهم.

وبداهةً كان للإمام مالك بن أنس ، برنامج يومي ، بالنسبة لتدريسه، يبتدئ به منذُ الصباح الباكر، حيث كان إذا صلى الصبح جلس في مجلسه لا يتكلم ولا يكلمه أحد حتى تطلع الشمس – ولعله كان يخصص ذلك الوقت للاستغفار وقراءة أذكار الصباح– فإذا طلعت الشمس اتصل إلى حلقته فسلّم على طلابه وابتدأ في تدريسه ، فكان هذا شأنه في كل يوم[٥].

كما أن حلقاته ومجالسه العلمية كانت مكتظة بطلبة العلم،ومع ذلك فقد كانت ملتزمة بآداب طلبة العلم،إذ كان مجلسه مجلس وقار وحلم، ليس فيه أي شيء من المراء واللغط ورفع الصوت،حتى أن البعض منهم كان لا يستطيع أن يستفهم من كاتبه[٦]إجلالاً لمالك وهيبة منه.

ويظهر أن الإمام مالك كان قد التزم بآداب لم يسبقه أحد من العلماء بالالتزام بها أثناء تدريسه ، فظل متفرداً بها بين شيوخه وأقرانه ، وحملة العلم من بعده حيث كان إن أراد أن يحدث توضأ وتطيب ، وجلس على فراشه وسرح لحيته ، وتمكن في الجلوس بوقار وهيبة ، فقيل له في ذلك، فقال: أُحبُّ أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ، ولا أحدث به إلاّ على طهارة وتمكن[٧].

---

[١] الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣١٦ ٣١٧ .

[٢] الصالحي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي (ت ٧٤٤هـ): طبقات علماء الحديث ، ج١ص٣١٤ ، تحقيق : أكرم البوشي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ؛ الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣١٦ ؛ الذهبي : السير ، ج٧ص٣٩٢ ؛ ابن الجوزي: المنتظم ، ج٩ص٤٣ .

[٣] القاضي عياض: ترتيب المدارك،ج١ص١٢٥ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام،حوادث سنة ١٧١ ١٨٠هـ ، ص٣٢٢ .

[٤] الذهبي : السير ، ج٧ص٤٠٠ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١٢٥ ١٢٦ .

[٥] ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص١٣ .

[٦] وكان لمالك كاتب يقال له حبيب ، فكان يقرأ للجماعة فليس أحد ممن يحضر هذا المجلس يدنوا ولا ينظر في كتابه ولا يستفهم هيبة لمالك وتقديراً له . (ابن سعد : الطبقات ، ج٥ص٢٨٩ ؛ ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ) : صفة الصفوة ، ج٢ص١٠٤ ، فهرسة/ عبد السلام هارون ، ط٢ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٧١ ١٨٠هـ ، ص٣٢٢) .

[٧] الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣١٨ ؛ ابن الجوزي : صفة الصفوة ، ج٢ص١٠٤ .

ونخلص إلى أن الدلائل تؤكد على علو منزلته في العلم، قال محمد بن عبد الحكم: "إذا انفرد مالك بقول لم يقله من قبله فقوله حجة" ، وقال مطرف : "كان مالك إذا سُئل عن مسألة نزلت فكأنما نبي نطق على لسانه"[١]، وقال ابن المبارك:"لو قيل لي اختر للأمة إماماً اخترت لها مالكاً"[٢].

ويؤيد ما ذكرناه عن تدريسه ونشره للعلم وتفضيله على غيره من العلماء في عصره لتثبته وإتقانه وتقدمه على غيره ، تلك الروايات التي ذكرت في معظم المصادر التي تسنى لنا الاطلاع عليها ما رآه[٣] له أصحابه في منامهم للرسول ﷺ ، والتي تفيد بأن مالك بن أنس سينشر علم رسول الله ﷺ ، بين الناس وينفذ ما أمر به رسول الله ﷺ ، ومن المعلوم بأن من رأى رسول الله في منامه فقد رآه حقاً لقوله ﷺ : "من رآني في نومه فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي"[٤].

◆ مؤلفاته:

ترى هل كان لهذا الإمام مؤلفات في فنون العلوم التي اشتهر فيها غير كتابه المشهور[٥] "الموطأ"؟ وإذا كان لديه مؤلفات أخرى ، فهل اشتهرت عنه ؟ ، أم رواها عنه من كتب بها إليه ، أو سأله إياها أحد من أصحابه وطلابه؟.

وللإجابة عن هذه التساؤلات ، نستطيع القول إن من الواضح أن مالكاً صنّف كتباً متعددة غير الموطأ ، وقد ذكر أحد[٦] جلسائه أن من أكبر كتب الإمام مالك ، كتاب المناسك ، إلاّ أنه لم يشتهر له شيئ غير الموطأ ، وسائر مؤلفاته إنما رواها عنه من كتب بها وأرسلها إليه ، أو البعض من أصحابه ولم يروها الكافة[٧].

---

[١] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١٣١ .

[٢] المصدر نفسه ، ج١ص١٣٢ .

[٣] قال أحد أقرانه وأصدقائه : دخلت على مالك فقال لي: أنظر ما ترى تحت مصلاي ، أو حصيري ، فنظرت فإذا أنا بكتاب ، فقال: اقرأه فإذا فيه رؤيا رآها له بعض أخوانه فقال: رأيت النبي ﷺ ، في المنام في مسجده ، قد اجتمع الناس عليه ، فقال لهم إنّي قد خبأت لكم تحت منبري طيباً أو علماً وأمرت مالكاً أن يفرقه على الناس ، فانصرف الناس وهم يقولون : إذاً ينفذ مالك ما أمره به رسول الله ﷺ ثم بكى فقمت عنه. (الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣١٧ ؛ ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص٧) . وقال آخر: رأيت كأن النبي ﷺ ، في المسجد قاعد والناس حوله ، ومالك قائم بين يديه ، وهو يأخذ منه قبضة قبضة ، فيدفعها إلى مالك ، ومالك ينثرها على الناس ، فأولت العلم واتباع السنة . وعن مصعب بن عبد الله الزهري عن أبيه قال: كنت جالساً مع مالك في مسجد رسول الله ﷺ ، إذ أتاه رجل فقال : أيكم أبو عبد الله مالك؟ فقالوا : هذا ، فقال : والله لقد رأيت البارحة رسول الله ﷺ جالساً في هذا الموضع فقال : هاتوا مالكاً فأتى بك ترتعد فرائصك فقال : ليس عليك بأس يا أبا عبد الله وكنّاك ، وقال : اجلس فجلست فقال : افتح حجرك ففتحت فملأه مسكاً منثوراً وقال : ضمه إليك وبثه في أمتي ، فبكى مالك طويلاً ، وقال : الرؤيا تسر ولا تضر ، وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله . (ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص١٥).

[٤] أخرجه البخاري في باب من رأى النبي ﷺ في المنام ، حديث رقم (٦٩٩٤) ، ص١٢٠٦ .

[٥] يذكر أن الإمام الشافعي قال : ما بعد كتاب الله تعالى كتاب أكثر صواباً من موطأ مالك . (الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣٢٩ ؛ ابن النديم : الفهرست ، ص٢٤٧ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٧١-١٨٠هـ ، ص٣٢١) .

[٦] وهو أبو جعفر الأزهري . ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص٣٣ .

[٧] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٠٤ ؛ ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص٣٣ .

فمن أشهرها: كتاب في النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر ، والذي وصف بأنه كتاب جيد ومفيد ، بل اعتمد الناس عليه في هذا المجال وجعلوه أصلاً في ذلك ، وكذلك كتابه التفسير لغريب القرآن ، والذي رواه عنه خالد بن عبد الرحمن المخزومي ، إضافة إلى ذلك كتابه الذي أسمي بكتاب السرور[١] ، من رواية ابن القاسم عنه.

كما اتضح أن له رسائل مشهورة كان أشهرها: رسالته إلى ابن وهب في القدر والرد على القدرية[٢] ، والتي ذكر القاضي عياض[٣] أنها من خيار كتب الإمام مالك في هذا الباب، والتي تدل على سعة علمه بهذا الشأن ، ورسالته في الأقضية كتب بها إلى بعض القضاة وهي عشرة أجزاء ، رواها عنه عبد الله بن عبد الجليل، ورسالته إلى ابن غسان محمد بن مطرف في الفتوى[٤]، رواها عنه خالد بن نزار ومحمد بن مطرف ، ومنها أيضاً رسالته إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد في الآداب[٥] والمواعظ ، رواها عنه عبد الله ابن نافع الزبيري ، وأخيراً رسالته إلى الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ) في إجماع أهل[٦] المدينة المنورة.

❖ **تأثيره العلمي على الأمصار الإسلامية ومنها بلده اليمن:**

لا يغيب عن بال القارئ ، أن معظم من رحلوا إلى المدينة المنورة خاصة والحجاز عامة في القرن الثاني للهجرة ، فضلاً عن القرون التي تلتها ، بغرض طلب العلم أو أداء فريضة الحج والعمرة ، وكذا الجوار في الحرمين الشريفين من مختلف الأمصار الإسلامية[٧] ، قد حضروا وتزودوا من مختلف فنون العلوم التي كان الإمام مالك بن أنس الأصبحي ، يقوم بتدريسها في حلقاته ومجالسه العلمية خلال حياته ، إضافةً إلى نتاجه العلمي الذي ظهر واقتناه كثير من طلابه.

---

[١] القاضي عياض: ترتيب المدارك ، ج١ص٢٠٥-٢٠٧ ؛بامطرف،محمد عبد القادر : الجامع جامع شمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم،ص٤٧١، الطبعة الأولى،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م،الهيئة العامة للكتاب ، صنعاء.

[٢] كان الإمام مالك بن أنس إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: أما إنّي على بينة من ربي ودِيني ، وأما أنت فشاك إلى شاك مثلك فخاصمه . ، وذكر أنه دخل على الإمام مالك رجل فقال: يا أبا عبد الله إنما أحكي كلاماً سمعته ، فقال: لم أسمعه من أحد إنما سمعته منك ، وعظم هذا القول . (الأصفهاني : حلية الأولياء ، ج٦ص٣٢٤ ٣٢٥) .

[٣] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٠٥ .

[٤] ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص٣٣ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٠٤ ٢٠٦ .

[٥] ابن النديم : الفهرست ، ص٢٤٧ ؛ الذهبي : السير ، ج٧ص٤٠٩ . وقد أنكرها كثير من المشايخ وقالوا فيها أحاديث منكرة ، لو سمع مالك من يحدث بها لأدبه . (ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص٣٣) .

[٦] الذهبي : السير ، ج٧ص٤٠٩ .

[٧] المصنف : الحياة العلمية في الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ص١٥٤ ١٨٣ .

إن من الواجب علينا هنا ، أن نذكر أن تأثير الإمام مالك العلمي لم يقتصر على من تتلمذ على يديه وأخذ عنه العلم من شيوخه وأقرانه وطلابه[١] ، لكن تأثيره العلمي أمتد ليشمل الأجيال المتعاقبة التي تلقت العلوم من تلاميذه الذين قام كل واحدٍ منهم في مصره بنشر علمه الذي تلقاه عن إمام دار الهجرة ، بين حملة العلم كلٌ في بلده ، مما جعل حملة العلم تتداوله في كل زمان ومكان.

ونحن هنا لا نغالي أن قلنا أن تأثير الإمام مالك بن أنس الأصبحي العلمي امتد حتى عصرنا الحالي، وفي الكثير من أمصار دار الإسلام، وما انتشار مذهبه في الكثير من البلدان الإسلامية مثل:بلاد المغرب[٢]التي تعمل على تطبيق تعاليم المذهب المالكي إلاّ دليل قاطع على تأثير الإمام مالك العلمي.

لقد قسم القاضي[٣] عياض أصحاب الإمام مالك من الفقهاء إلى ثلاث طبقات:

الأولى: من كان له ظهور في العلم مدة حياته وقاربت وفاته مدة وفاة الإمام مالك.

الثانية: جماعة بعد هؤلاء عرفوا بطول ملازمتهم وصحبتهم، واشتهروا بعده بتفقههم عليه وروايتهم عنه.

الثالثة: جماعة صحبوه وكانوا صغار السن ، فقاربوا أتباع أتباعه ، وفضلوا بشرف مجالسته وسماعه ، فضلاً عن من ذكر من بعدهم فريقاً بعد فريق.

ولكون هذا المقام لا يتسع لذكر أسماء طلبة العلم الذين أخذوا العلم عن الإمام مالك ، من مختلف أمصار دار الإسلام ، والذين يزيد تعدادهم عن الألف والثلاثمائة[٤] شخص فإننا سنكتفي بذكر أسماء البعض من حملة العلم اليمنيين ممن كان للإمام مالك تأثير كبير في تكوين شخصياتهم العلمية مثل: حفص بن عمر بن ميسرة الصنعاني (ت ١٨١هـ) ومحمد بن عبد الرحمن الصنعاني[٥] ، ومحمد بن كثير بن أبي عطاء الصنعاني[٦] (ت ٢١٦هـ) ، وكذلك محمد بن مخلد الحضرمي (ت ٢٩٣هـ) ، ومحمد بن الحسن بن أتيش الصنعاني[٧] ، ومرداس بن محمد أبو هلال الأشعري ، ومنيع بن ماجد أبو مطرف الصنعاني[٨] ، وعبد الله بن معاذ الصنعاني (ت ٢٥٣هـ) ، وعبد الله بن الوليد العدني[٩] ، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني[١٠] (ت ١٢٦هـ) ،

---

[١] الذهبي : السير ، ج٧ص٣٨٥ ٣٨٧ . وقال جعفر الغرباني : لا أعلم أحداً روى عنه الأئمة والجلة ممن مات قبله بدهر طويل إلاّ مالك ، وقال غيره : لا نعلم أحداً تقدم أو تأخر اجتمع له ما اجتمع لمالك . (القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص١٤٣) .

[٢] للمزيد من الاطلاع ، أنظر : القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٤٠٩٢٥٤ ، ج٢ص٤١٣ ٦٣٠ .

[٣] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٨١ ٤٠٩ ، ج٢ص٤١٣ ٦٣٠ .

[٤] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٥٤ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٨٠١٧١هـ ، ص٣١٨ .

[٥] ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص٢٦ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٥٧٢٥٨ .

[٦] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٦٤ .

[٧] المصدر نفسه ، ج١ص٢٦٥ .

[٨] ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص٢٧ .

[٩] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٦٨ .

[١٠] المصدر نفسه ، ج١ص٢٠٧ .

وهشام بن يوسف القاضي الصنعاني (ت ١٩٧هـ/٨١٢م) ، ويحيى بن ثابت الجندي ، ويحيى بن المبارك الصنعاني[١] (ت ٢٠٢هـ/٨١٨م)، ومحرز بن سلمة العدني (ت١٤٠هـ)، وهارون بن علي الحضرمي[٢] (ت ٢٣٢هـ/٨٤٦م).

وهناك الكثير ممن تتلمذ على الإمام مالك من أبناء بلده اليمن،لا نستطيع ذكرهم هنا خوف الإطالة، وكما يبدو أن الإمام مالكاً كان يعتمد على الكثير منهم في كتابة مؤلفاته ، فهذا يحيى بن ثابت الجندي من أبناء الجند –التابعة لمدينة تعز حالياً اشتهر عنه بأنه أول من وطأ للإمام مالك كتبه[٣].

فمن خلال ما ذكر عن اعتماد الإمام مالك على الكثيرين من حملة العلم اليمنيين في كتابتهم له كتبه، وغير ذلك من المهام التي كان يسندها إليهم أثناء عقد مجالسه وحلقاته العلمية ، يتضح وبما لا يدع مجالاً للشك في أن هؤلاء وغيرهم قاموا بعد عودتهم من المدينة إلى بلدهم اليمن ، بنشر كل ما تعلموه عن إمام دار الهجرة في أنحاء بلاد اليمن ، في تعز، وحضرموت ، وصنعاء،وعدن، وغيرها وبالتالي كان نصيب اليمن على وجه الخصوص وافراً من تأثير الإمام مالك العلمي.

كما لا يفوتنا هنا أن نذكر ، أن البعض من اليمنيين ، ممن تتلمذ على الإمام مالك وغيره من شيوخ المدينة المنورة قد ظهر تأثير الإمام مالك العلمي في تكوين شخصياتهم العلمية ، فأصبحوا بعد عودتهم من المدينة إلى بلدهم اليمن مشهورين بعلمهم الغزير ، مما أهلهم لتقلد بعض الأعمال والمناصب الإدارية – الحكومية مثل: ولاية القضاء وغيره ، فضلاً عن إنتاجهم العلمي الذي ظهر في مختلف العلوم التي تلقوا تعليمها على الإمام مالك ، ومنهم: أبو قرة موسى بن طارق السكسكي[٤] والذي روى عن الإمام مالك ما لا يحصى حديثاً.

ويذكر أنه تولى القضاء في مدينة زبيد ، وكان له العديد من المؤلفات مثل: كتابة الكبير وكتابة المبسوط ، وسماع معروف في الفقه عن الإمام مالك[٥].

❖ علاقته بالخلفاء والأمراء:

من خلال تصفحنا لبطون الكتب التي عثرنا عليها ، والتي كان لها الفضل في رصد بعض الجوانب المتعلقة بعلاقة الإمام مالك بالخلفاء والأمراء الذين عاصرهم في حياته ، اتضح لنا أن شخصية الإمام مالك هي شخصية العالم الحقيقي ، التي كانت معروفة لدى الخاصة والعامة منذُ القرن الأول الهجري ، في تعاملها

---

[١] المصدر نفسه ، ج١ص٤٧٦ ٢٧٧ .

[٢] ابن رشد : المدونة الكبرى ، ج١ص٢٧، ٢٨ .

[٣] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٣٠٠ .

[٤] ويقال عنه إنه من الجند ، ناحية اليمن ، والبعض قال: إنه من زبيد من أهل الخصيب (القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٣٩٦ ٣٩٧) .

[٥] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٣٩٧ .

مع أولياء أمور المسلمين من خلفاء وأمراء وقادة ، والتي كانت تظهر من خلال تمسكها بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، مستشعرة في ذلك قوله تعالى: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"[١] ، أي أن العلماء أكثر خشية لله من غيرهم لما يمتلكونه من مخزون علمي عن خالقهم جل جلاله ، وكذا عن دينهم ودنياهم وآخرتهم.

إن معرفتهم تلك جعلتهم يحددون مساحاتهم في التعامل مع أولياء الأمر ، وبما يملي عليهم واجبهم الديني نحو أولياء الأمر، طبقاً لقوله تعالى: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"[٢] ، غير متناسيين لدورهم،بوصفهم علماء نحو أمتهم، واضعين نصب أعينهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعن ذلك يقول الله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر"[٣].

ونظراً لكون الإمام مالك كأسلافه العلماء العاملين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ لم تكن لديه مصالح شخصية تقيده وتجعله ألعوبة في يد الخليفة أو الحاكم –كما هو حال بعض العلماء في عصرنا يسخره لما يشاء قوله وفعله ، لكن علاقته بهم كانت مبنية على أساس قول الحق لهم ونصحهم وإعانتهم على فعل الخير وتطبيق تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف ، ومتى ما رأى منهم غير ذلك ، قام بزجرهم وعدم الامتثال لأوامرهم مهما كلفه ذلك ، يذكر أن والي المدينة جعفر بن سليمان (ت ١٩٤هـ) أمر بضرب[٤] الإمام مالك بن أنس كونه لا يوافقهم الرأي في جواز طلاق المكره ، وبعد ضربه حُلِق له وحُمل على بعير وقيل له: نادِ على نفسك ، لكنه لم يتراجع عن قوله وأصر على رأيه الفقهي ، فكان يقول: "ألا من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي ، وأنا أقول طلاق المكره ليس بشيء"[٥]،فبلغ ذلك الوالي جعفر بن سليمان ، أنه ينادي على نفسه بذلك ، مما جعل الوالي يتراجع عن ما أراد فعله بالإمام فقال: أدركوه أنزلوه فما زال بعد ذلك الضرب في رفعة عند الناس وعلو من أمره ، بل عظمه الناس ، وكأنما كانت تلك السياط التي ضرب بها حلياً حلي بها جسده[٦].

إن ما ذكر يؤكد لنا أن الإمام مالك كان لا يخاف في الله لومة لائم، وإن سُجن وعُذب وشُهِّر به ، وهذا شأن العلماء الحقيقيين في كل زمان ومكان ، لأنهم يعرفون أكثر من غيرهم أنهم محاسبون أمام الله عن علمهم ماذا عملوا به في الدنيا.

---

[١] سورة: فاطر ، الآية: (٢٨) .

[٢] سورة: النساء ، الآية: (٥٩) .

[٣] سورة: آل عمران ، الآية: (١١٠) .

[٤] المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٣ص٣٧٢ ، تحقيق: عبد الأمير مهنّا ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩١١م ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٧١- ١٨٠هـ ، ص٣٢٣ .

[٥] الأصفهاني : حلية الأولياء،ج٦ص٣١٦ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٧١- ١٨٠هـ ، ص٣٣٠- ٣٣١ .

[٦] ابن سعد : الطبقات ، ج٥ص٢٨٩ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ص٤٤ .

لقد عُرف عن العلماء في تلك الفترة عدم ترددهم على منازل وقصور الخلفاء والسلاطين بل وكرههم لذلك حيث ورد في الأثر: "إذا رأيتم العالم يتردد على أبواب السلاطين فاتهموه"[١] وذلك لما فيها من منقصة للعالم وعلمه الذي يحمله، ومع ذلك ولكون الإمام مالك كان حريصاً على النصح لأولياء أمور المسلمين يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر ، حتى ذكر عنه أنه قال: "حق على كل مسلم أو رجل فعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل إلى ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر ويعظه"[٢].

ودخل الإمام مالك ذات مرة على الخليفة هارون الرشيد ، وبين يدي الخليفة شطرنج ينظر فيه ، فوقف الإمام مالك ولم يجلس ، فعاتب الخليفة بقوله: "أحق هذا يا أمير المؤمنين؟ قال الخليفة: لا ، فقال له الإمام: فما بعد الحق إلاّ الضلال" فقيل أن الخليفة هارون الرشيد رفع رجله من ساعته، وأمر بأن لا ينصب بين يديه بعد ذلك اليوم[٣].

لقد كان الإمام مالك صلباً في دينه جريئاً في قول الحق ، يذكر أحد أقرانه أنه سمع الإمام مالكاً يحلف بالله أنه ما دخل على أحد من السلاطين إلاّ أذهب الله عن قلبه هيبته حتى يقول له الحق[٤].

ومع ما ذكر عن الإمام مالك فقد بلغ منزلة عالية لدى الكثير من الخلفاء لعلمه الغزير حتى أنهم كانوا يتشاورون معه حول بعض الأمور التي تهم الأمة الإسلامية ، ويعملون برأيه ، فهذا الخليفة أبو جعفر المنصور ، أثناء حجه استدعى الإمام مالكاً فحادثه وسأله قائلاً: "إنّي قد عزمت أن آمر بكتبك التي وضعتها– الموطأ فتنسخ نسخاً، ثم ابعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخه وآمرهم أن يعملوا بما فيها لا يتعدوه إلى غيره ، فردّ عليه الإمام مالك بألا يفعل ذلك لكون الناس في كل مصر قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، فدع الناس وما هم عليه،فقال الخليفة:"لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرت به"[٥] وهذا دليل على احترام الخليفة لرأي الإمام مالك،واحترام الإمام مالك للتنوع الفقهي الذي نتج عن اجتهادات أقرانه من العلماء.

ورغم العلاقة الحميمة بينه وبين الخليفة وإجلاله له والعمل برأيه ، إلاّ أن الإمام مالك كان لا يداهن الأمراء أو الخلفاء في شيء قد يؤدي إلى الانتقاص منه ومن علمه ، بل إنه كان يوضح للخليفة نفسه وقار العلم وهيبته، فيذكر أن الخليفة الرشيد وجه إلى الإمام مالك بأن يأتيه ويحدثه ، فقال له الإمام:

---

[٢] يذكر أن مالكاً كان إذا دخل على الوالي وعظه وحثه على مصالح المسلمين ، ولقد دخل يوماً على الخليفة هارون الرشيد ، فحثه على مصالح المسلمين ، وقال له: لقد كان عمر بن الخطاب مع فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة النار تحت القدور فيخرج الدخان في لحيته ، وقد رضي الناس منكم بدون هذا . (القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٠٧-٢٠٨) .

[٣] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج١ص٢٠٨ .

[٤] المصدر نفسه ، ج١ص٢٠٨ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات سنة ١٧١- ١٨٠هـ ، ص٣٢٩ .

[٥] ابن سعد : الطبقات ، ج٥ص٢٨٩ .

العلم يؤتى ، فما كان من الخليفة إلاّ أن قصد منزل الإمام مالك ، فقال له الإمام: "يا أمير المؤمنين من إجلال رسول الله ﷺ إجلال العلم ، فجلس بين يديه[1] وحدثه".

وهكذا كانت علاقة الإمام مالك بن أنس الأصبحي بالخلفاء والأمراء في عصره.

المصادر والمراجع:

◆ **البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م) :**

١ صحيح البخاري ، الطبعة الثانية ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، مكتبة دار السلام ، الرياض.

◆ **الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) :**

٢ جامع الترمذي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، دار السلام للنشر والتوزيع ، القاهرة .

◆ **ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٢م) :**

٣ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٤ صفة الصفوة ، المجلد الأول ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت .

◆ **ابن حبّان ، أبو حاتم محمد بن حبّان بن أحمد التميمي البستي (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م) :**

٥ مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار ، حققه ووثقه : مرزوق علي إبراهيم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت .

◆ **الخليلي ، الخليل بن عبد الله القزويني (ت ٤٤٦هـ/١٠٥٤م) :**

٦الإرشاد في معرفة علماء الحديث ، تحقيق : محمد سعيد إدريس ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، مكتبة الرشد ، الرياض .

◆ **الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) :**

٧ سير أعلام النبلاء ، ج٧ص٣٨٧ ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد العمروي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، دار الفكر ، بيروت .

٨ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، حوادث ووفيات سنة ١٨٠١٧١هـ ، تحقيق: د/ عمر عبد السلام تدمري ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

٩ معرفة القرّاء الكبار ، المجلد الأول .

◆ **ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٢٠هـ/ م) :**

١٠ مقدمات ابن رشد لبيان ما اقتضته المدونة الكبرى من الأحكام ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، دار الفكر ، بيروت.

◆ **الزبيدي ، أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت٨٩٣هـ/ م) :**

١١ طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، صنعاء .

◆ **السخاوي ، شمس الدين محمد عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) :**

١٢ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق : فرانز روزنثال ، ترجم التعليقات والمقدمة / د.صالح أحمد العلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

[1] بامطرف : جامع شمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ، ص٤٧٠ ، ٤٧١ .

◆ **ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) :**

١٣ الطبقات الكبرى ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

◆ **ابن سيدة ، علي بن إسماعيل النحوي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م) :**

١٤ المخصص ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت . (د.ت.ط) .

◆ **الأصفهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠خهـ/١٠٣٨م) :**

١٥ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، طبعة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت .

◆ **ابن عبد الهادي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣م) :**

١٦ طبقات علماء الحديث ، تحقيق : أكرم البوشي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

◆ **القاضي عيّاض ، أبو الفضل عيّاض بن موسى بن عياض اليحصبي البستي (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م):**

١٧ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق: د/ أحمد بكير محمود ، مكتبة الحياة ، بيروت ، دار مكتبة الفكر ، طرابلس ، لبنان.

◆ **ابن فرحون ، إبراهيم بن علي بن محمد المالكي (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٧م) :**

١٨ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق : د/محمد الأحمدي أبو النور ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، (ب.ط.ث) .

◆ **الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩هـ):**

١٩ الموطأ لإمام الأئمة وعالم المدينة مالك بن أنس تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، دار التراث ، القاهرة .

◆ **المختار ، عبد الرحمن أحمد :**

٢٠ الحياة الاجتماعية للعلماء من (١٥٠٥٠هـ) ، رسالة ماجستير غير منشورة من قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ١٩٩٩م .

◆ **المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) :**

٢١ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق: عبد الأمير مهنّا ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩١١م ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .

◆ **المصنف ، عبد الرحمن أحمد حفظ الدين :**

٢٢ الحياة العلمية في الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، رسالة دكتوراة غير منشورة من قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٣م .

◆ **بامطرف ، محمد عبد القادر :**

٢٣ الجامع جامع شمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، الهيئة العامة للكتاب ، صنعاء .

◆ **المقحفي ، إبراهيم أحمد :**

٢٤ معجم المدن والقبائل اليمنية ، طبعة ١٩٨٥م ، دار الكلمة ، صنعاء .

◆ **ابن منظور ، الإمام محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) :**

٢٥ لسان العرب المحيط ، قدم له الشيخ عبد الله العلايلي ، بيروت ، (د.ط.ت) .

◆ **ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م):**

٢٦ الفهرست ، تعليق : إبراهيم رمضان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، دار المعرفة ، بيروت .

◆ **الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٦٠هـ/٩٧١م) :**

٢٧ كتاب الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير ، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، طبعة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، الناشر: وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء.